
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المسألة الديمغرافية :نحو منهجية ديمغرافية محاولات إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)

محمد حجاج الطويل
كلية الآداب-ابن مسيك -
الدار البيضاء

Mohamed Hajjaj Taouil

La question démographique, essai statistique, l'exemple du Moyen Age.

Résumé :

Le but de l'intervention est de poser la problématique de la démographie au Moyen Age et de présenter quelques essais statistiques sur la population du Maghreb à partir des textes historiques (guerres, production agricole, migration...)

The demographic problem : A statistical approach (The Middle Ages as a model)

Abstract :

The present study considers the problem of demography in the Middle Ages and suggests a statistical estimation of the population of Morocco on the basis of historical texts (wars, agricultural produce, migrations, mosques, etc.).

كنانيــــش: منشــورات كليـــــة الآداب - وجـــدة. 1999 مــن ص. 19 - 28

المسألة الديمغرافية : نحو منهجية ديمغرافية
محاولات إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)

تقديــم

من المفيـد جدا التعرف ولو تقريبا على حجم سكان المغرب إن لم يكن عددهم بالتحديد حتى تصبح لدينا فكرة واضحة عن حركاتهم وسكناتهم وعن هجراتهم وتزايدهم الطبيعي إلى غير ذلك من العناصر الديموغرافيـة، ومعرفة ما يترتب عن ذلك من قوى الانتـاج وتوزيع الثروات وحركة البضائع والسلع الى غير ذلك من الأنشطة البشرية.

إن المسألة الديموغرافية في العصر الوسيط ، وكغيره من الحقب التاريخية ، لا تخلو من مزالق، حتى إن المتكلم والباحث فيهـا ينعت أحيـانا بالمغامر. من هنا جـاء نعتنا للموضـوع «بالمسألة» لاستعصـاء حلها حتى يومنا هذا، لكن ما قلناه لا يعني أنه تهرب من البحث أو نظرة تشاؤمية تغلق الباب أمام الإجتهاد، بل بالعكس، فمعظم المواضيع المطروحة على البحث التاريخي اليوم تحتم على الباحثين الخوض في المسألة الديموغرافية، إلا أن الخوض هنا لا يعني الدخول في تخمينات سهلة أو افتراضات إعتباطية ، بل يعني الإستغلال المتبصر لأدنى الإشارات والتقديرات والأرقام الواردة في مختلف المصادر لتكوين استنتاجات موضوعية تجعلهم يقاربون المسألة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر الوسيطية، أو التي تحدثت عن العصر الوسيط وردت فيها بعض الإحصائيات المشجعة، لكن بعض الدارسين ، وخاصة منهم الأجانب الذين يحاولون طمس كل ماهو لامع في تاريخنا العربي الإسلامي عموما ، يقللون من أهميتها ويتشككون في صحتها حتى لو كانت من مصادر غير عربية أحيانا[1]، ومعلوم أن أي بحث جاد عليه أن يستغل جميع العناصر والمؤشرات التي تساعد في أخذ صورة ولو أولية عن حجم السكان وتوزيعهم الجغرافي، شريطة إخضاع المادة المصدرية للنقد التاريخي[2].

* نحو منهجية ديموغرافية تاريخية

تختزن الكثير من المصادر الوسيطية وغيرها بعض الإشارات الإحصائية والتقديرات اللفظية عن عدد السكان: قبائل وبطون واتحاديات قبلية ، وعن المدن والأسواق وعدد المساكن والفنادق والحمامات وغيرها من المرافق العمومية، وعن عدد الجنود والمعارك وعدد القتلى والأسرى والسبايا ، مما يمكن اعتباره معطيات أو مؤشرات ، إذا تم ضبطها وتوحيد قراءتها وإخضاعها للنقد التاريخي[3] يمكن القول إننا سنقترب أكثر من وضع آليات إن لم نقل منهجية للبحث في الديموغرافيا التاريخية. وهذا مخطط بالمعطيات أو المؤشرات المشار إليها:

أ- المؤشر العمراني والمعماري

1- عدد القبائل والمدن والقرى وباقي أشكال التجمعات السكنية :(قلاع، حصون، مداشر، إغرم، أگادير...)

2- مساحة المدن وطول أسوارها وأبوابها، فالمدن الوسيطية تصنف كبيرة أو صغيرة بحسب عدد أبوابها وتعدد مرافقها العمومية: (مساجد، حمامات، فنادق، أسواق وغيرها، وبتعدد أزقتها ودروبها وأحيائها وأرباضها....

- **أمثلة:** ذكر البكري ومن أخذ عنه أن عدد التجمعات السكنية في تامسنا في العهد البرغواطي بلغ 387 ما بين مدينة وقرية وقصر[4].وقدم الجزنائي في كتابه جني زهر الآس إحصاءا عن عدد دور السكنى في مدينة فاس في العهد الموحدي:

- دور السكنى: 89236 [5]

- المصاري : 17041

- تصنف المدن كبيرة أو صغيرة بعدد أبوابها ، فقد أشارت المصادر المختلفة إلى تعدد أبواب مدينة فاس ومراكش (حوالي 24 بابا لكل منها)[6] . هذه مدن كبيرة، وما كان دون ذلك فهي مدن متوسطة، سجلماسة (8 أبواب) سبتة (7 أبواب)[7] ، وما دون ذلك فهي مدن صغيرة.

- تعتبر المساجد كبيرة أو صغيرة بعدد أبوابها وبلاطاتها وإنارتها ، فتعددها يعني كبرها ، أي طاقة استيعابية كبيرة تساعدنا على تصنيف المدن إلى جانب عناصر أخرى[8].

ب- المؤشر الانتاجي والاستهلاكي.

1- المياه العذبة: الأنهار، العيون، الآبار، السقايات والسواقي...

تعدد مصادر المياه وتنوع وسائل تزويد السكان بها مؤشر على درجة كثافة السكان.

- **أمثلة:** وسائل استهلاك الماء في العهد الموحدي في فاس[9] وسبتة [10]:

	فاس	سبتة
عدد السقايات	80	25
دور الوضوء	42	12
الحمامات	93	20

2 - **الأراضي الفلاحية:** مساحة الأراضي المزروعة، حجم الاستغلاليات ،أنواعها إلى غيرذلك ، طرق الاستغلال، المراعي، الحضائر...

3 - **الاستهلاك:** المواد الغذائية (الحبوب ، اللحوم، الزيوت...)

- العلف (التبن ، العشب ، الشعير وغيره)

- مواد الطاقة (الحطب ، الفحم ، روث البهائم، الأزبال...)

4 - **النفايات:** الأزبال، المياه المستعملة ، الرماد.

- **أمثلة عن استهلاك اللحوم:** يذبح في سوق أغمات وريكة أكثر من 100 ثور و 1000 شاة وينفذ في ذلك اليوم كله [11].

- أرسلت صنهاجة تيسفرت (دكالة) إلى الخليفة الموحدي عبد المومن تخبره أن عليه أن يسارع إلى حصار مراكش قبل دخول زرع دكالة إليها[12].

- بولعوان منطقة في دكالة لكل واحد من سكانها 100 زوج من الثيران محصولاتهم حوالي ألف حمل دابة من القمح[13].

هذه أمثلة عن إنتاج ضخم للقمح واستهلاك كبير له وردت في فترتين متباعدتين وتعني أن وراء هذا الإنتاج يد عاملة كثيرة وأن الاستهلاك أكبر.

ج – المؤشر العسكري:

1 – عدد الجنود، أصنافهم، عدد القتلى والأسرى، المحلات، المخيمات إلخ.

2– تنقل العساكر براً وبحراً .

– أمثلة: ذكرت المصادر الموحدية أن عدد الجنود الذين شاركوا في الاستعداد للجهاد في الأندلس في عهد الخليفة عبد المومن قد فاقوا 480 ألف شخص موزعين كالآتي:

– عساكر الموحدين والمرتزقة وقبائل العرب والبربر وزناتة :+ 300 ألف فارس

– جيوش المتطوعة : .... : 800 ألف فارس.

– الراجلون : .... : 100 ألف فارس.

وأن هذا العدد انتشر على مسافة تزيد عن 60 كلمتر[14].

وعن الجواز الأول للخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس ذكرت أنه جاز بـ 100 ألف جندي من العرب والموحدين عدا الحشود والمتطوعة، وبتطبيق قاعدة كاريت Carette جندي عن ثلاثة أفراد نضرب معدل الأسرة المعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط وهو 5 في الأرقام المقدمة لنحصل على عدد السكان حسب أصنافهم.

د – المؤشر الإحصائي:

1– الضرائب بجميع أنواعها – مقدار الضرائب – عدد المفروضة عليهم.

2– تتبع تحرك القبائل وتفرعاتها في الزمان والمكان.

3 – المعيارات والإشارات التقديرية والكمية.

– أمثلة: تحدث ابن خلدون عن مصامدة جبال درن فقال:

«... يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم...»[17].

وعن مصامدة تامسنا زمن البرغواطيين قال ابن عذاري: « وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف » (18)

* المحاولة الإحصائية الأولى:

نتخذ كمنطلق للمحاولة الإحصائية وهي تطبيق لما سبق وأن عرضته من مقترحات منهجية، ونتخذ تامسنا كمكان جغرافي والعصر الوسيط الأعلى والأدنى كفترتين رئيسيتين مختلفتين.

جاء عند الحسن الوزان في كتابه « وصف افريقيا » ذكر مفصل عن تامسنا (19)، وقد حلل لويس ماسينيون(20) كتاب الوزان وخرج بخرائط وجداول وبيانات عن مختلف القطاعات، ومنها جدول عن سكان المدن في المغرب موزعين حسب المناطق الإدارية ومنها منطقة تامسنا:

عدد مدنها 11 ، منها مدينتان كبيرتان ب 800 كانون، وإذا حذفنا المدينتين الكبيرتين من مجموع العدد ، فإن المدن الصغيرة يكون عددها تسعة، وإذا اتخذنا لها كمعدل 200 كانونا فإننا نصل في نهاية العمليات الحسابية إلى أن مجموع سكان المدن في تامسنا أواخر القرن الخامس عشر وبداية ق 16م هو 13.000 نسمة(21).

- هذا باعتماد المؤشر العمراني عن عدد المدن ومنه نستطيع أن نستنتج مجموع عدد سكان تامسنا مع مراعاة اعتبارين أساسيين:

1) إن الفترة فترة تدهور عام في المغرب وتراجع في ساكنته.

2.) إن منطقة تامسنا تعرضت في العهد الموحدي لتصفية ساكنتها الأصلية ومحاولة تعويضها بالقبائل العربية الهلالية، وأن القبائل العربية التي حدد لها المخزن الموحدي مجالات استقرار لم تلتزم به وعاودت حياتها القديمة المعتمدة على التنقل والترحال، بدليل أن تامسنا لم تعرف بناء مدن عربية، وما احصاه الحسن الوزان يعتبر ما تبقى من مدن بربرية يعود تأسيسها إلى العهد البرغواطي(22).

للاعتبارين السابقين واعتمادا على أوصاف الحسن الوزان ولسان الدين ابن الخطيب (23) وغيرهما، يمكن القول إن سكان مدن تامسنا مثلوا ربع مجموع السكان وبالتالي فمجموع ساكنة تامسنا بلغت 52000 نسمة.

إذا صعدنا إلى العصر الوسيط الأعلى واعتمدنا المؤشر العسكري فإننا وبعمليات حسابية بسيطة نحلل فيها ما ورد عند البكري (24) في كتابه « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » بخصوص جيوش البرغواطيين:

بنو صالح : 3.200 فارس

قبائل برغواطة : 10.000 فارس

باقي سكان مملكتهم : 12.000 فارس

مجموع الفرسان : 25.200

إذا اتخذنا معدل الكانون المعمول به وهو 5 أفراد وأخذنا المعدل العسكري الإجباري المتعارف عليه، فرد واحد من كل كانون وبعملية حسابية بسيطة، نصل الى تقدير عدد سكان تامسنا في العهد البرغواطي بحوالي 126.000 نسمة(25)، أما إذا طبقنا قاعدة كاريط فإن العدد هو 75.600، وإذا طبقنا المؤشر العمراني فإن العدد أكبر .

*** المحاولة الإحصائية الثانية:**

تتعلق هذه المحاولة بساكنة المغرب الأقصى ونتخذ لها منطلقين متباعدين: التاريخ القديم ونهاية العصر الوسيط.

* جاء في أحد البحوث المتخصصة في العهد الروماني أن عدد سكان موريطانيا الطنجية في العهد الروماني كانوا يمثلون ثلث ساكنة افريقيا الرومانية (26) وأن سكان هذه الأخيرة بلغ في فترات الازدهار حوالي 700.000 نسمة، وبعملية حسابية بسيطة نستخلص عدد سكان موريطانيا الطنجية وهو 225.000 نسمة، وبما أن المثلث الروماني (موريطانيا الطنجية يمثل حوالي ثلث مساحة المغرب الرطب)، يمكننا القول إن العدد المحتمل لسكان المغرب في ذلك الوقت قد وصل الى حوالي 800.000 نسمة.

ومن المعروف أن الظروف الطبيعية في المغرب عرفت بعض التحسن أواخر العهد البيزنطي وبداية الفتح الإسلامي، فكان لذلك انعكاس إيجابي على الجانب الديموغرافي ، وإذا أضفنا الى ذلك العامل الإشارات الواردة في مصادر تلك الفترة واشارات المصادر المتأخرة والتي تفيد أن عدد سكان المغرب كان كبيرا في بداية الفتح الإسلامي، سواء منها ما تعلق بشدة مقاومة السكان المحليين

للفاتحين، والتي تعطي أرقاما كبيرة عن عدد الأسرى والسبايا في صفوف البرابرة، وكذا المقادير الهائلة من الأموال المستخلصة بطرق شرعية وغير شرعية (27)، مضاف إلى ذلك كله الإشارات عن الهجرات التي صاحبت مراحل الفتح الإسلامي وكذلك نقل الولاة والعمال لبعض القبائل من شرق المغارب إلى غربها، أمكننا أن نضيف إلى العدد السابق نصفه لنصل إلى رقم يدور حول مليون ومائتي ألف نسمة.

عرف المغرب في الفترة الممتدة من العهد المرابطي إلى نهاية العهد المريني الأول (العصر الوسيط الأوسط) عرف درجة من الإزدهار والتقدم على جميع الأصعدة، إذ بلغ فيها مستوى من الوحدة والتوسع لم يبلغه من قبل (ولا من بعد) . إذ أصبح امبراطورية مترامية الأطراف تمتد على قارتي إفريقيا وأوروبا. ويهيمن على غرب البحر الأبيض المتوسط (في العهد الموحدي) ، في هذا العصر يمكننا وبدون مبالغة مضاعفة العدد السابق في أربعة لنصل إلى أربعة ملايين، فالعصر عرف استقرارا سياسيا وثورات فلاحية وعمرانية بلغت أوجها في العهد الموحدي، وعرف العصر موجات من الهجرات البشرية نحو المغرب (هجرات صنهاجية وهلالية ومعقلية وزناتية)، ويعزز تقديرنا كذلك الأعداد الهائلة من الجنود والمتطوعين المغاربة للجهاد في الأندلس، فالمصادر المهتمة ذكرت أرقاما للجنود تجاوزت مئاتي ألف جندي ومتطوع، ومن الإحصائيات التي نعتمد عليها لتأكيد الرقم المذكور ما جاء عن سكان مدينة مراكش في العهد الموحدي (500.000 نسمة) (28).

وقدم لنا ابن أبي زرع الفاسي والجزنائي احصاءا مدققا عن عدد منازل مدينة فاس ودورها ودكاكينها ومصرياتها ومرافقها العمومية وغيرها، وبعد تحليل الاحصاءات المقدمة ونقدها نصل الى أن عدد سكان مدينة فاس- (في العهد الموحدي)- بلغ حوالي ثلاثمائة ألف نسمة (300.000) (29).

*** نهاية العصر الوسيط**

وكمنطلق لمقاربة المسألة الديموغرافية وخاصة منها الجانب الإحصائي، نأخذ مصدرا متميزا من مصادر العصر الوسيط الأدنى، هو كتاب الحسن الوزان «وصف افريقيا». فبحكم وظيفة المؤلف وتكوينه الثقافي قدم لنا بعض الاحصائيات عن عدد كوانين بعض المدن والقرى، وهي

احصائيات لا يطالها النقد الموجه للكتاب وظروف تأليفه، إذ قيل إن الحسن الوزان قد اعتمد في تأليف كتابه على الذاكرة، فالمؤلف بحكم وظيفته المخزنية اطلع على السجلات والدواوين وغيرها من الوثائق الرسمية ، بالإضافة الى الاطلاع المباشر في الميدان والاحتكاك بالقبائل والنخبة في المدن والقرى، كل هذه المؤهلات جعلته يقفز بالكتابة التاريخية والجغرافية التاريخية قفزة نوعية بتقديم احصائيات قابلة للتحليل، ومن التحاليل المعروفة لكتاب الوزان واحصائياته ماقام به لويس ماسينيون (30).

قدم لنا هذا الكاتب الدارس احصاءا عن المدن في شكل جدول بلغ عددها 119 مدينة موزعة حسب المناطق الإدارية ومصنفة الى مدن كبيرة وصغيرة، الكبيرة 42 والصغيرة 77، ومجموع عدد سكانها باعتماد المعدل المتعارف عليه في حوض البحر الأبيض المتوسط وهو 5 أفراد للأسرة الواحدة، فإن مجموع عدد سكان المدن الكبيرة بلغ 339.000 وان المدن الصغيرة هي التي لا يتعدى معدل كوانينها 200، واعتمادا على نفس القاعدة المذكورة أعلاه فإن مجموع سكان المدن الصغيرة يصل إلى 77.000 نسمة، ومجموع سكان المدن خلال الفترة المذكورة (أواخر القرن 15م وبداية 16م) هو 416.000 نسمة، وبما أن عصر الوزان مثل تراجعا كبيرا في المغرب على جميع المستويات ، ومنها المستوى الديموغرافي ، حيث سادت حياة الاضطراب والتنقل وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي وانتشار الأوبئة والمجاعات والحروب وهزالة الانتاج، فإن حياة المدن لم تمثل إلا القليل وان عدد سكانها لم يبلغ على أقل تقدير سوى ربع سكان البوادي، لنصل في النهاية الى رقم يدور حول مليونين ونصف (31).

بمقابلة الرقمين أربعة ملايين ومليونين ونصف نصل إلى الاستنتاج التالي: إن عدد سكان المغرب انخفض الى أكثر من النصف خلال أربعة قرون، ويجد الاستنتاج سنده القوي في الإحصائيات المقدمة وفي النصوص (32).

الهوامش:

1- قال ماسينيون عن مارمول في كتابه «افريقيا» : إنه مولع بتضخيم الأرقام

2- L. Massignon; Le Maroc dans les premières années du 16e siècle. Alger, 1906.

انتقد ابن خلدون المؤرخ الكبير المسعودي في تعداد جنود بني اسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام إذ قال إن عددهم 600 ألف، ويعتبر نقده نموذجا يمكن الاستفادة منه . راجع : العبر. دار البيان، بيروت، بدون تاريخ، ج. 1 ، ص. 10-11.

3- نفسه.

4- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . الجزائر، 1911 ،ص 136، الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء، 1951 ،ج.2 ،ص.16.

5- الجزنائي: جني زهرة الآس. الرباط، ،1967 ص. 44، ابن أبي زرع: روض القرطاس. الرباط، 1957، ص. 43.

6- الحسن الوزان: وصف افريقيا الرباط.، 1980، ج1 ،ص.100، وأيضا الخرائط الواردة في كتاب التشوف الى رجال التصوف للتادلي، الرباط، 1982، عن مدينة فاس ومراكش وكذا فهرس الأماكن.

7- البكري: المغرب. م س.، ص. 8، الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار. مجلة تطوان، 1958- 1959، طبعة الرباط، 1969.

8- سبقت الإشارة إلى الأبواب وطول الأسوار والمرافق العمومية الأخرى حمامات افران- فنادق وغيرها.

9- ابن أبي زرع الفاسي: القرطاس. م .س.، الجزنائي: زهرة الآس .م س.

10- الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار . م. س.

11- البكري: المغرب. م. س.، ص. 153.

12- أبو بكر الصنهاجي (البيدق): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. الرباط، 1971، ص.63.

13- الحسن الوزان: وصف افريقي. ا م.س.، ج ،1 ص .123 وعن الحمل تجمع كثير من المصادر المختصة أنه 50 كلج × 1.000= 50.000 كلج، فهذا انتاج ضخم في ذلك الوقت يتطلب يدا عامله كثيرة.

14- الناصري: الاستقصا. م.س.، ج.2، ص. 149- 150: «ونهض الأندلس في 100 ألف من العرب والموحدين.

15- نفسه . ص .143- 144

16- نفسه.

17- ابن خلدون: العبر. م.س.، ج.6 ،ص. 223.

18- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغر ب . بيروت، 1983 ،ج.4، ص. 10.

19- الحسن الوزان: وصف افريقيا . م س ج.1، ص. 156- 157- 158.

20- L. Massignon; Le Maroc; op. cit., p. 184 - 439.

21- باستعمال معدل 5 أفراد للكانون.

22- الحسن الوزان:. م. س.، ج.1 ، ص. 156- 157- 158.

23- ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب. البيضاء، 1989 ،ص .57- 58- 59 وما بعدها.

24- البكري: المغرب. م .س.، ص. 140- 141.

25- في المصدر نفسه ورد ذكر عدد مدن وقرى تامسنا وهو 387. وإذا حللنا العدد واخضعناه للنقد التاريخي وضغطناه إلى الحد الأدنى بأخذ ما قدمه الحسن الوزان من إعداد الكوانين، فإن المعدل الإجمالي للسكان يتجاوز ضعف العدد المذكور.

26- محمد البشير شنيتني: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، 1984.

27- ابن عذاري: البيان المغرب . م. س.، الجزء الأول ، بيروت ، 1948، ص. 51- 52- وما بعدها.

28- الناصري السلاوي: الاستقصا. م. س.، ج. 1 ، ص .106- 107 108 وما بعدها.

29- ابن أبي زرع: القرطاس. م .س.، و الجزنائي: زهرة الآس. م. س.، راجع الهامش رقم 5.

30- L. Massignon; Le Maroc op. cite. -

31- من الاستنتاجات المبالغ فيها جعل عدد السكان البربر أزيد من 4 ملايين.

32- عن العهد الموحدي: راجع وصف ابن صاحب الصلاة وتعليقه على زمن الخليفة أبي يعقوب يوسف، ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة... بيروت، 1964، ص. 347 .348 و375 و432 وما بعدها. جاء فيختتام وصفه للرخاء ومقادير الأموال والألبسة والخيول الموزعة... « وقيل للزمن أنت خير زمان » وعن أواخر العصر الوسيط: راجع ما قاله ابن خلدون عن تبدل الأحوال بالمغرب والمشرق، نقله « صاحب الاستقصا » ، الدار البيضاء، 1955 ، ج. 4، ص. 84- 85.